التنمية الأسرية من خلال الأسرة النبوية

للأستاذة الدكتورة بثينة الغلبزوري

الحمد لله الحنان المنان، الكريم الرحمن، الذى خلق الإنسان، وعلمه البيان والصلاة والسلام على نبينا محمد عبد الله ورسوله خاتم الأنبياء، وسيد الأصفياء، وإمام الأولياء، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته كما صليت وسلمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد وبعــــــد،

من فضل الله ونعمه على عباده أن أرسل إلينا رسولاً منّا.... من جنسنا ومن طبيعتنا البشرية ..... إنسان تتمثل فيه العقيدة بكل خصائصها وتتجسم فيه بكل حقيقتها هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة للقرآن الكريم... أرسله سبحانه وبحمده ليكون معلم الناس وهادي الخلق إلى أكمل الخُلق وحياته في أسرته نبراس يستنير به المسلم عبر الأزمنة و الأمكنة.

فكيف كان محمد صلى الله عليه وسلم في بيته ؟؟؟

إن المدقق في مجال العلاقات الأسرية لحياة الحبيب محمد . صلى الله عليه وسلم . يجد أن هناك معاني كثيرة نحن بأمس الحاجة لها في واقعنا المعاصر، ولو عملنا بها لساهمت في استقرار بيوتنا وتقوية علاقتنا الزوجية، فالأسرة النبوية المطهرة نموذجاً هادياً لأسر المسلمين، فهم صفوة الصفوة، نستلهم منهم عبير الفضائل، ورحيق الإيمان، وكريم الشمائل .

خلقه صلى الله عليه وسلم مع زوجاته:

كان عليه الصلاة و السلام يقدر الزوجة ويواليها عناية فائقة .. ومحبة لائقة ولقد ضرب أروع الأمثلة في ذلك حيث تجده أول من يواسيها .. يكفكف دموعها .. يقدر مشاعرها .. لا يهزأ بكلماتها.. يسمع شكواها.. يخفف أحزانها.. ويتنزه معها ويسابقها، ويحتمل صدودها ومناقشتها ويحترم هويتها ولا ينتقصها أثناء الأزمات ، بل ويعلن حبه لها ويسعد بذلك الحب ، وهذه بعض الدرر الملتقطة من الأسرة النبوية.

العناية بمشاعر الزوجة:

إن المرأة لم تعرف فى حياتها وفى وجودها وتاريخها كله معانى الإحترام والتقدير والتكريم على النحو الذى عرفته على يد النبى الكريم فى بيته، وعرفته بالقول وبالتطبيق العملى الدقيق، وعرفته فى وصاياه النبوية الخالدة : استوصوا بالنساء خيرا .

وقد ترفع النبى الكريم وتنزه عن إهانة المرأة وشتمها وحذر الرجال أشد التحذير من ضربها وإهانتها فقال الرسول –**صلى الله عليه وسلم** "لا يضرب أحدكم امرأته ضرب العبد فى أول النهار ثم يضاجعها آخره" .

وكان من تحذيره لبعض الرجال قوله "لا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت"[1] .

وقد عرف الرسول صلى الله عليه وسلم- برقة الطبع ولين القول وبشاشة الوجه مما شجع النساء المسلمات بكثرة سؤاله والبوح له بأدق مشكلات حياتهن الزوجية فى أمان واطمئنان .

ومن أمثلة ذلك ما وقع من امرأة تدعى جميلة أو حبيبة بنت عبد الله بن أبى بن سلول ، فإنها أتت النبى فحدثته عن مشكلتها حيث أنها

---

[1] سنن أبي داود كتاب النكاح باب حق المرأة على زوجها 481

تبغض زوجها ثابت بن قيس، وتريد أن تفارقه لشدة دمامة خلقته. فقالت يا رسول الله لا يجتمع رأسى ورأس ثابت أبداً .

إنى رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل فى عدة .قالت : فإذا هو أشدهم سواداً. وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً فقال النبى –صلى الله عليه وسلم لها "أتردين عليه حديقته"

قالت نعم وإن شاء زدته ففرق النبى بينهما.[1] وكان هذا أول خلع فى الإسلام كما قال ابن عباس رضى الله عنه.

وفى هذا دليل واضح على أن المرأة لا يجبرها الإسلام على معاشرة الزوج إذا ما بلغ نفورها منه وبغضها إياه .

وهكذا لم يتجاهل رسول الله –صلى الله عليه وسلم-مشاعر امرأة قط فى أى جانب من جوانب الحياة ويشهد بذلك ما كان بينه وبين صفية بنت حيي ابن أخطب الإسرائيلية فقد تحدثت عن مشاعرها تجاه الرسول فى أول زواجها وكيف تبدلت تلك المشاعر بعد ذلك على يد النبى الكريم.

قالت صفية "كان رسول الله من أبغض الناس إلى قلبى إذ قتل أبى وعمى ولكنه مازال يقول لى : ياصفية إن أباك ألب على العرب وفعل كذا وكذا " يعنى يعدد لها مساوئ أبيها حتى صفا قلبها وامتلأ بحب رسول الله" [2]

ومن نماذج احترام النبي . صلى الله عليه وسلم . لمشاعر الزوجة وتقديرها وبيان حبه لزوجاته. عندما سألته السيدة عائشة . رضي الله عنها : كيف حبك لي؟! فقال عليه السلام: "كعقدة الحبل" ثم سألته:

---

[1] أرواه البخاري في كتاب الطلاق باب الخلع وكيف الطلاق فيه 4971

[2] رواه ابن حبان في " صحيحه " (11 / 607) ، وحسنه الألباني .

كيف العقدة؟! فقال: على حالها...[1] أي لم تتغير والنبي . صلى الله عليه وسلم وصف لعائشة . رضي الله عنها . حبه لها كعقدة الحبل أي أن الحب مازال مربوطا في قلبه وهذه الكلمات لا شك أنها أدخلت السرور على الزوجة عندما استمعت إلى مشاعر زوجها بالوصف المذكور ولنتخيل مشاعر عائشة . رضي الله عنها . ودرجة سعادتها عندما استمعت إلى هذه الكلمات، وهي تعلم مسبقا أنها هي المحببة إلى زوجها الحبيب محمد . صلى الله عليه وسلم .، فكم من مرة استمعت إليه وهو يقول لها بأنها فضلت على النساء كتفضيل الثريد على باقي الطعام.

روى ابن عساكر عن السيدة عائشة . رضي الله عنها . أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لها: "ما أبالي بالموت بعد أن عرفت أنك زوجتي بالجنة".[2]

وكان عليه الصلاة و السلام يعرف مشاعرها وأحاسيسها إذ يقول لعائشة رضي الله عنها: أنى لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت عنى غضبى..

أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين لا ورب محمد ..وإذا كنت عني غضبى قلت :لا ورب إبراهيم؟؟ قالت قلت أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك.[3]

---

[1] وأخرجه تمام في "الفوائد" (985

[2] وأخرجه بنحوه المروزي في زياداته على "الزهد" لابن المبارك (1078 (، والطبراني في "الكبير" 23 / (98) ، وفي "الأوسط" (3185) من طريق أبي معاوية ، عن أبي حنيفة ، عن حماد بن أبي سليمان ، عن إبراهيم ، عن الأسود مرفوعاً ، بلفظ : "إنه يهون علي الموت أن رأيتك زوجتي في الجنة" وهذا إسناد ضعيف فقد تفرد به حماد بن أبي سليمان ، وله أوهام ، ولا يحسن تفرُّده.
وقد ثبت أن عائشة زوجتُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة من حديث عمار بن ياسر عند البخاري (3772) ، وقد سلف (18331

[3] رواه مسلم كتاب فضائل الصحابة » باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنهما حديث 2439

قال القاضي عياض : مغاضبة عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم هي مما سبق من الغيرة التي عفي عنها للنساء في كثير من الأحكام كما سبق لعدم انفكاكهن منها حتى قال مالك وغيره من علماء المدينة : يسقط عنها الحد إذا قذفت زوجها بالفاحشة على جهة الغيرة .

قال : واحتج بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما تدري الغيراء أعلى الوادي من أسفله "[1] , ولولا ذلك لكان على عائشة في ذلك من الحرج ما فيه , لأن الغضب على النبي صلى الله عليه وسلم , وهجره كبيرة عظيمة , ولهذا قالت : لا أهجر إلا اسمك , فدل على أن قلبها وحبها كما كان، وإنما الغيرة في النساء لفرط المحبة .

معالجته لغيرة زوجاته:

الحياة الزوجية واقعة ضمن الحياة العامة للإنسان ؛ فهي ليست بمعزل عما يشوب الحياة من منغصات تكدر صفوها ؛ وقد كثُر في هذا الوقت تذمر وضيق كثير من الأزواج مما يظهر على زوجاتهم من غيرة، يرون أنّها في كثير منها غير مبررة . مع ما تجده المرأة من وجاهة في تصرفها...

وقد تسبب الغيرة بجميع أنواعها في تصدع الأسرة وانشقاقها، ولهذا نجد في سيرته عليه الصلاة والسلام حلول لعلاج مشكل الغيرة بين الأزواج.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ هَلَكَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا وَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ فَيُهْدِي فِي خَلَائِلِهَا مِنْهَا مَا يَسَعُهُنَّ[2] .

---

[1] صحيح مسلم » كتاب فضائل الصحابة » باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنهما 2439

[2] أخرجه البخاري في كِتَاب الْمَنَاقِبِ » بَاب تَزْوِيجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ... رقم الحديث: 3556

-وعَنْها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتِ :اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ فَارْتَاعَ لِذَلِكَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَالَةَ قَالَتْ فَغِرْتُ فَقُلْتُ مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا[1].

-قَالَ الْعُلَمَاءِ : الْغَيْرَةُ مُسَامَحٌ لِلنِّسَاءِ فِيهَا لَا عُقُوبَةَ عَلَيْهِنَّ فِيهَا لِمَا جُبِلْنَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَلِهَذَا لَمْ يَزْجُرْ عَائِشَةَ [2].

قال ابن حجر في "فتح الباري:"

فيه ثبوت الغيرة وأنها غير مستنكر وقوعها من فاضلات النساء فضلا عمن دونهن .وأن عائشة كانت تغار من نساء النبيﷺ لكن كانت تغار من خديجة أكثر وقد بينت سبب ذلك وأنه لكثرة ذكر النبيﷺإياها ووقع في الرواية التي تلي هذه بأبين من هذا حيث قال فيها من كثرة ذكر رسول اللهﷺ إياها[3] .

قال ابن بطال : وفيه الصبر على النساء وعلى ما يبدو منهن من الجفاء والحرج عند الغيرة لما جبلن عليه منها ، وأنهن لا تملكنها ، فعفى عن عقوبتهن على ذلك وعذرهن الله فيه[4] .

عن أنس رضي الله عنه قال (كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت ، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق الصحفة ثم جعل فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول : غارت أمكم !! ثم حبس

---

[1] رواه البخاري ومسلم

[2] (شرح النووي على مسلم) (15 / 202) (دار إحياء التراث العربي) .

[3] ج ٧ – الصفحة

[4] شرح ابن بطال للبخاري (7 /353) -مكتبة الرشد- .

الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت فيه .[1]

عالجت السنة النبوية المطهرة الجوانب النفسية للزوجة، فإذا غارت لم يزد من حدة الغيرة بالنكاية أو السب مما يؤكد لها حب الزوج لغيرها وكرهه لها، بل كان يقابل غيرة زوجته بالتفهم و الحكمة.

ويمكن تحديد منهج النبيﷺ في التعامل مع غيرة زوجاته فيما يلـــي:

- الغيرة صفة ملازمة لكثير من النساء وليست خاصة بزوجتك؛ وهذا مما يعينك على قبول وضعك، والتكيف معه؛ و هي تتعامل مع الغيرة بطريقة فطرية عفوية، كتعاملها مع شدة الحنان على أبنائها وتحمل مشقة رعايتهم.
- الدعاء لها بدل اللوم والعتاب و لتكن غايتك من رفع الغيرة عنها الرأفة بها، والحب لها.

وقد دعا الرسول ص لأم سلمة .

ملاطفة ومداعبة النبى لأهل بيته :

كان الرسولﷺ يعامل زوجاته بالعلم والتسامح والصفح الجميل والتواضع ولين الجانب، والرقة والرفق .كما اتسم كلامه معهن بالعذوبة والحلاوة ،فلا تفارق حديثه الكلمة الطيبة . ولا تفارق شفتيه.

ومن أروع ما وقع فى بيت النبىﷺ من صور الملاطفة ما كان من إستجابة النبى لرغبة عائشة حين أرادات أن تشاهد لعب الحبشة

---

[1] **رواه البخاري (399/9) .**

بحرابهم أمام المسجد الذى تطل عليه حجرتها والمسجد يومئذ فضاء غير مسقوف ، وكان اليوم يوم عيد، ولم يكن الوقت وقت صلاة ،فأذن النبى لعائشة أن تقف خلف ظهره وتضع رأسها وفق كتفه لتشاهد لعب الحبشة بحرابهم ، وتأنس وتتسلى بتلك المشاهدة ، وهى مستريحة قد شبعت نفسها فأستأذنت بالإنصراف وهى راضية فهذه ملاطفة لا يخص بها النبىﷺ عائشة بل لو طلبتها منه أى امرأة أخرى لأجابها إليها.

فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم- شديد الحرص على أن يعامل رجال أمته زوجاتهم بمثل ما يعامل به زوجاته من أجل هذا كان يقول على مسمع من الناس جميعاً "كل شيء ليس فيه ذكر الله فهو سهواً ولهواً إلا أربع خصال [1]"وذكر من هذه الخصال ملاعبة الرجل لأهله".

يختار أحسن الأسماء لها كان صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة: "يا عائش، يا عائش هذا جبريل يقرئك السلام". [2]

وكان يقول لعائشة أيضا: يا حميراء، والحميراء تصغير حمراء يراد بها البيضاء.

وكان يأكل ويشرب معها، وفي صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (كنت أشرب وأنا حائض، ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم، فيضع فاه على موضع فيَّ، فيشرب، وأتعرق العرق[3] وأنا حائض، ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع فيَّ، ... فيشرب) .

---

[1] أخرجه النسائي في " كتاب عشرة النساء " (ق 74 / 2)

[2] متفق عليه.

[3] أتعرق (العرق) : بفتح العين وسكون الراء أي : آخذ اللحم من العرق بأسناني ، وهو عظم أخذ معظم اللحم منه وبقيت عليه بقية، والمراد هنا العظم الذي عليه اللحم

إضفاء روح المرح في جو الأسرة :

عن عائشة رضي الله عنها قالت: زارتنا سوده يومًا فجلس رسول الله بيني وبينها إحدى رجليه في حجري , والأخرى في حجرها فعملت لها حريرة فقلت : كلي !

فأبت فقلت : لتأكلي , أو لألطخن وجهك

فأبت فأخذت من القصعة شيئاً فلطخت به وجهها

فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجله من حجرها لتستقيد مني فأخذت من القصعة شيئاً فلطخت به وجهي ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك[1].

خدمته ﷺ لأهل بيته:

لكل من الرجل والمرأة دور ومسئولية في الأسرة (ومن مقتضيات العشرة بالمعروف تعاونهما في أداء هذه المسئوليات، ومن أهم المسئوليات الخاصة بالمرأة هي تدبير شئون البيت ومسئولياتها في تربية الأولاد. وهذه المسئوليات، وإن كان العبء الأكبر منها يقع على المرأة؛ فإنها تعتبر من حيث مبدأ التعاون مسئوليات مشتركة بين الزوجين.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم –يساعد زوجاته فى أعمال المنزل وذلك فى وقت فراغه فتقول السيدة عائشة رضى الله عنها "كان يكون فى مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة" حيث تعنى بقولها "مهنة أهله" أى "خدمة أهله" أى كان يقضى وقت فراغه مشتغلاً بخدمة أهله، فهو يخدم نفسه ويخدم أهله فيرقع ثوبه ويغسله ويصلح

---

[1] رواه النسائي

نعله ويعجن خبزه ويحلب شانه ...!) إلى غير ذلك من الأعمال والخدمات التى كان يفعلها عن طيب خاطر لنفسه ولأهله دون ترفع عن شيء منها مادام فى فعلها الراحة والهناء لأهل بيته .

و كان يرفع اللقمة الى فمها (أي الزوجة) إذ قال عليه الصلاة والسلام: انك لن تنفق نفقة الا أجرت عليها حتى اللقمة ترفعها الى في امرأتك[1] .

هذا وهو من هو، نبي الله، ورئيس دولة المسلمين، ومع ذلك يجد الوقت في خدمة ومهنة أهل بيته، ورفع اللقمة إلى فم زوجته فما أعظمه من معلم.

استشارة النبي صلى الله عليه وسلم زوجاته في أدق الأمـــــور

إن الشورى صفة لكل فرد مسلم، فالفرد مسؤول عن نفسه ويجب أن يشاور من هُم أعرف منه في قيادة نفسه وسياستها، لأنه مسؤول أمام الله عن نفسه، وكل فرد مسلم رب أسرة مسؤول أمام الله عن سياستها، وعليه أن يشاور أفرادها وأهل المعرفة والخبرة من أجل حُسن سياستها وقيادتها إلى رضوان الله في الدنيا والآخرة. بعض الأزواج لا يرى للنساء حقاً سوى القيام بالخدمة في البيت، ويستصغر رأي النساء في شؤون البيت ويفهم فهماً خاطئاً حديث الرسول : أن النساء ناقصات عقل ودين[2]، فتراه مستبداً في أمور البيت، لا رأي إلا رأيه،

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه كتاب الوصايا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

[2] متفق عليه، وهو جزء من حديث ورد فيه " ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن".

ولاقول إلا قوله، ويعزّز هذا النهج الخاطئ أقوال تتردد على ألسنة الناس لا يدعمها شرع ولاعقل، كقول من يقول: "شاوروهن وخالفوهن".

فكم من النساء راجحات العقول أصوب في آرائهن من آراء كثير من الرجال، وهذا رسول اللهﷺ يعلّمنا الاستشارة في كل الشؤون، ويطبق فى بيته أسلوب التحاور والتشاور مع أهله على أساس من التقدير والإحترام. ومن ذلك استشارته صلى الله عليه وسلم لأم سلمة في صلح الحديبية لما قال لأصحابه : قوموا فانحروا واحلقوا، قال : فو الله ما قام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة ، فذكر ذلك لها ، فقالت أم سلمة : يا نبي الله !اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة، حتى تنحر بدنك وتدعو حلاقك فتحلق ! فقام فخرج فلم يكلم منهم أحدا، حتى فعل ذلك ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما.[1]

فكانت مشورة أم سلمة نعم المشورة وكان رأيها نعم الرأى الذى أخرجه من ضيقه وأنقذ الصحابة من شر مخالفة أمر الله باتباع رسوله عليه الصلاة والسلام .

ولذلك يجب على كل رجل أن يقتدى بالرسول-صلى الله عليه وسلم –ويقوم بمشاورة زوجته وأخذ رأيها إذا كان صواباً .

كما كفل الإسلام أيضاً للمرأة حق المشاورة فى أمر زواجها وأبى الإسلام أن تجبر امرأة على الزواج ممن لا تريد زواجه

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه :2731]

خاتمـــــــــة:

وفـــي الختـــام أقـــــول :

لعل أهم أسباب التفكك الأسري و تصدع بنيان الأسرة هي: غياب مجموع القيم والمبادئ والركائز التي قامت عليها الأسرة النبوية في العلاقة الزوجية، هذه الأسرة التي لم تخل أبدا من منغصات الحياة؛ والأزمات التي كادت تعصف به، من غيرة الزوجات و غضبهن و طلبهن الزيادة في النفقة و.... ولكن رسولنا الكريم استطاع بحكمتة وحسن معاملته لزوجاته وعظم خلقه أن يدير ببراعة دفة الخلافات لترسو سفينته لبر الأمــان.